العقلانية والانتمائية: جدل النقد بين الجابري وطه عبد الرحمان

حسناء يونسي

طالبة باحثة في فلسفة القانون

تقديم

إشكالية العقل من بين الإشكاليات التي تعددت رؤاها حيث أنها تستوقف أي مشروع نهضوي حداثي يناقش إشكالات قضايا الفكر الفلسفي، باعتبار أن عملية التفكير نتيجة حتمية لاستعماله، لهذا يجب تمحيص كل آلية ونقدها قبل استعمالها، فالتفكير أمر ضروري وحتمي، لأن هذه الحتمية ملازمة للإنسان حتى اعتبره بعض الحكماء جزءا من ماهيته، بحيث يجب تعقيل التفكير بكونه في أصوله مجرد عملية إدراكية، هذا النوع من التفكير يرتبط بالاستطاعة كما يرتبط بالجرأة والإرادة أيضا، يقول أفلاطون في أهمية هذه الأركان الثلاثة: "نحن مجانين إذا لم نستطع أن نفكر، ومتعصبون إذا لم نرد أن نفكر، وعبيد إذا لم نجرأ على التفكير". سنحاول في هذا البحث أن نرصد دلالات وأبعاد العقل العربي لمشروعي الجابري وطه عبد الرحمان، رغم أن مشروعيهما متناظران، ولكل منهما وجهته الفكرية التي بناها وفق مبادئه ورؤاه، إلا أنه يجمعهما أمر واحد وهو الهاجس الإصلاحي النهضوي، وهذا واضح في القضايا التي تطرقا لها، وحاولا أن يجيبا عن إشكالاتها كل من خلال رؤيته الخاصة، القضايا نفسها التي خاض فيها "الفكر العربي"؛ أسئلة النهضة والحداثة والتراث وتجديد الفكر العربي الإسلامي إضافة إلى أهم إشكالية طرحت نفسها على الفكر النهضوي وهي إشكالية العقل، إن مشروعيهما تأسيس حقيقي في الفكر الفلسفي العربي عامة والمغربي خاصة؛ للقدرة الفكرية والإرادة في التفكير والجرأة على التفلسف، إذن سنحاول مقاربة هذا الموضوع من خلال طرح الانتقادات وبؤر الاختلاف بين الجابري وطه عبد الرحمان عبر طرح هذا السؤال: إذا كان هذان المفكران يتفقان من حيث الهدف وهو نهضة فكرية عربية شاملة، فما هي أوجه الاختلاف بينهما؟ وما هي الانتقادات التي وجهها طه عبد الرحمان للجابري؟.

المحور الأول: نظرية نقد العقل العربي عند الجابري

من خلال مشروعه الضخم حاول الجابري أن ينتصر ويؤسس لحركة عقلانية بحيث تتأطر في المعقول العقلي والمعقول الديني، لهذا لا بد من الوقوف عند مسألتين أساسيتين في البناء النظري لدى الجابري؛ والتي يمكن اعتبارها المنطلق الذي أنتج مشروعه الفكري، هاتان المسألتان تتمثلان في تعاطيه مع التراث العربي الإسلامي بنظرة شمولية، وتقويمه لهذا التراث عن طريق النظر في آلياته؛ حيث أنه يحث على وحدة البنى الفكرية للتراث العربي الإسلامي والذي تكون نتيجته الحتمية هي الشمولية. إن الجابري حاول من خلال مشروعه أن يؤسس لنظرية في العقل العربي بوصفه أداة للإنتاج النظري صنعتها ثقافة معينة لها خصوصيتها هي الثقافة العربية، فالجابري يعتقد جازما أن الثقافة، أي ثقافة لا يمكن أن تتجدد إلا من داخلها "فالمدخل الضروري لكل تجديد في الثقافة العربية الإسلامية في داخلها" وأن تجديد التراث لا يمكن أن يتم إلا بقراءة موضوعية ومعقولة أي نجعله معاصرا لنا وذلك عن طريق وصله بنا، وبموضوعية؛ بمعنى جعله معاصرا لنفسه بما يوجب فصله عنا. إذن فالمنهج لدى الجابري يتحدد بكونه يرتبط ويتأسس على مشكل الموضوعية أي لحظة فصل التراث عن الذات ومشكل الاستمرارية أي لحظة الوصل معنا، ثم إن توقيع الجابري عبارة العقل العربي كان بحسبه من منظور علمي وبعد تبنيه النظرة العلمية

المعاصرة للعقل بعدما لاحظ غياب العقلانية في كيفية التعاطي مع التراث، لهذا نجده ينفي صفة الحقيقة المطلقة وينادي بفصله عن الدين ويقول بتاريخية هذا العقل ويعيب عليه التصاقه بالأحكام الأخلاقية. فالجابري يتفادى دمج العلم في الدين والدين في العلم، ويبتعد عن القول بعقل شفاهي وعقل كتابي كما فعل أركون مع نقد العقل الإسلامي الذي دعا الى تحريره من سياج الدغمائية للمدونة النصية والتنظير للعقل الاستطلاعي والوعي المنبثق، لذا نراه يميز باقتدار بين الفكر كأداة ونشاط ذهني ينتج المفاهيم ويضع المبادئ من خلال عملية البحث والتنظير وهذا هو العقل المكون constituante، الفكر كمحتوى يقصد به العقل المكون (constituée) الذي يفيد كل المبادئ والأسس المعتمدة خلال عملية الاستدلال. ويربط الجابري بنية العقل وتكوينه بالجغرافية أساسا، وباللغة كجهاز استلام وإرسال ويختزن داخله حقائق البيئة ذاتها، لهذا كانت مفاهيم اللفظ والأعرابي والصحراء والنحو والبلاغة وغيرها من أهم المفاهيم والمصطلحات التي وظفها في مشروعه للتعرف على كنه العقل العربي، الجغرافية واللغة لهما دور هام ومحوري في تحليل وتكوين العقل وبنيته، منهجا ورؤية. ومن أهم النتائج التي توصل لها الجابري اعتبار تفاوت العقول المعرفية حيث يضعه كنظام منفصل وسط ثلاثة أنظمة، كلها داخلة في "العقل العربي" وهي النظام البرهاني الفلسفي والنظام العرفاني الصوفي، والنظام البياني الذي يستقل بالدلالة اللغوية المتسقة مع تنظير المشروع للغة العربية باعتبارها أساس العقل العربي، إذن فالبياني والعرفاني والبرهاني هي الأنماط المتعددة لذات الفاعلية المعرفية أي العقل والتي تتعدد طبقا لمستويات الوجود التي يحاول تفسيرها، وبالتالي فإن العلاقة بينها هي علاقة تكامل لا علاقة تناقض حسب الجابري ويؤكد على أن هذا التقسيم للأنظمة العربية خاص بالثقافة العربية الإسلامية "العالمة" المكتوبة لا بالثقافة الشعبية المتمثلة في الأمثال والقصص والأساطير وغيرها كما أن ترتيب هذه الأنظمة ليس ترتيبا زمنيا أو مكانيا، لأن الزمن العربي الإسلامي قد عاش نظامين منها أو الثلاثة معا في وقت واحد وربما في مكان واحد، والأمر يتعلق هنا بزمن خاص اصطلح عليه الجابري ب "الزمن الثقافي"، حيث أنه لم يكن الهدف لدى الجابري التأريخ للفكر العربي إنما تتبع مراحل تكوين العقل العربي أو هذه الأداة التي أنتجت هذه الثقافة العالمة، هذا الزمن الثقافي المتسم بالركود والركون إلى التراث والاجترار منه وليس تطويره إعادة بناءه اتباعا لمتطلبات الفكر المعاصر. كما أنه لا يجب إغفال استناد الجابري لنقده للعقل العربي لعدد من المفاهيم الفلسفية والمنهجية الغربية كمفهوم العقل المكون والعقل المكون عند لالاند ومفهوم القطيعة المعرفية لدى باشلار والمنهج الأركيولوجي عند فوكو. وقد عقد الجابري مقارنة بين العقول الثلاثة للحضارات الثلاث: اليونانية والعربية والأوروبية، مستنتجا وجود فارق بين العقل العربي والعقل اليوناني والعقل الأوروبي، لا في حدود الإشكالية التي يبحثان فيها فقط، بل إنهما مختلفان أساسا حول سير المعرفة وطريقتها ونوع العلاقة التي تربط بين العقل والطبيعة كما أن الجابري يجعل من عصر التدوين الإطار المرجعي الذي تشكل فيه العقل العربي المنتمي للثقافة العربية، هذا العصر الذي كان يعيش حياة فكرية نشيطة من خلال انتشار أسواق الفكر والثقافة وبهذا حسب الجابري فإن العقل العربي وضع أسسه خلال عصر التدوين في بداية الدولة العباسية وأن هذا العصر كان نقطة البداية لتكوين النظم المعرفية للثقافة العربية حيث اكتمل تكوينها ولم يتغير مند ذلك الوقت ومازال سائدا للثقافة إلى اليوم ويدعو الجابري إلى عصر تدوين جديد يدعو العقل إلى التفكير في عدم الجمود والتوقف عند الثقافة الموروثة، فهاجس الجابري كان هو إعادة العقل العربي المستقيل إلى العمل من أجل مستقبل الأمة، هذا العصر الذي يجب أن ينطلق في تأسيسه لنقد التراث "نقد العقل العربي" ومن نقد "العقل الغربي" فمن خلال هذا النقد يتحصل للعقل مراجعة نفسه ليتحرر من عوائقه ومكبلاته لبناء عصر تدويني جديد.

يعتمد مشروع الجابري على مفهوم العقل الذي يغلب على كتبه الممثلة لمشروعه الضخم "نقد العقل العربي"

حيث أثار سجالات ونقاشات عديدة حول أرائه في النهضة والتراث والعقل العربي ودخل في جدل مع العديد من المفكرين والباحثين العرب طوال سيرته الفكرية التي بدأت قبل أكثر من أربعين عاما وخلق نوعا من الحيرة لدى قرائه في المغرب والعالم العربي ككل وقد أثارت عبارة "العقل العربي" الكثير من ردود الفعل الإيجابية أحيانا والسلبية أحيانا أخرى، ورغم ما يمكن أن نلحظه من بعض الانتقادات التي وجهت إلى أفكاره، مثل مسألة تقسيم العقول البشرية إلى عربي وغربي كما قال ذلك الأستاذ فتحي التريكي كما انتقده المفكر علي حرب في استخدامه مصطلح عقل بدلا من فكر، كون العقل واحدا ولكن الفكر متغير من عقل إلى آخر، كما أنه يؤكد على أن الجابري لا يلتزم بالعقلانية التي يدعو لها، يتعاطى بدافع قومي عصبوي غير عقلاني كما في وقوفه مع ابن رشد ضد ابن سينا، بالإضافة أن طه عبد الرحمان في " تجديد المنهج"[1] تناول أوجه القصور في فقه الآليات والبناء المتهافت لنموذج الجابري ويشير إلى أن الجابري أخذ بالنظرة التجزيئية حيث يدعي أنه يتخذ النظرة الشمولية إلا أنه وقف عند حدود النظر في الخطاب التراثي بصدد الآليات حيث يدعي أنه سينظر في الآليات نفسها وليس في مضامين هذا الخطاب، في حين أن جورج طرابيشي دفع باتجاه القول أن الجابري نموذج معاصر للسرقات الفكرية وأنه يتكتم على مصادره أحيانا يزيفها.

المحور الثاني: إشكالية العقل بين التقسيم المعرفي والنقد الأخلاقي

بين الجابري وطه عبد الرحمان أكثر من نقطة تماس وبؤرة صراع وهذا يبدو جليا من خلال ما يلي :

-أولا: يطرح طه عبد الرحمان انتقاداته على مقاربة الجابري في إطار تقويم الدراسات المعاصرة للتراث، سنقتصر على بعض الانتقادات المتعلقة مباشرة بإشكالية العقل، حيث ينتقد طه عبد الرحمان نظرية العقل عند الجابري على مستوى المرجعيات التي اعتمدها هذا الأخير، ثم على مستوى البناء المنطقي الذي قابل به الجابري بين مختلف تمظهرات العقل في الثقافة العربية الإسلامية، وأيضا تقسيمه الثلاثي للعقل (البرهان، العرفان، البيان) وفي الأخير انتقد طه عبد الرحمان في توظيفه لآلية المماثلة (آلية تخصيص العقل، آلية المقابلة، آلية التقسيم وآلية المماثلة) والتي يصفها طه بالقصور والتهافت في بنائها.

- ثانيا: حاول طه عبد الرحمان فحص الأسس الفكرية التي اعتمدها الجابري في مشروعه النقدي، الذي حاول تبني ما سماه" بالتصور العلمي في أرقى مراتبه" مع العلم حسب طه عبد الرحمان أن هذا التصور الذي أخذه الجابري من المصادر الفرنسية ينتمي إلى اجتهادات تجاوزتها الدراسات العلمية المستجدة "والتي لا يعقل أن يستغني عنها الباحث المسؤول أو يتجاهلها."[2] ويرى طه عبد الرحمان أن الجابري أساء ترجمة مقولة "جعلها حجر الزاوية لنظريته في العقل" لأحد الباحثين الإبستمولوجيين والتي حملها عكس دلالتها عند صاحبها، وهذا دليله على إبطاله لنظرية الجابري في العقل على أرقى مراتب التصور العلمي، سواء من حيث سوء فهمه وتأويله لعبارة "غونزيت".[3] أو من حيث الدراسات الابستمولوجية المتقادمة التي اعتمدها، وبتعبير طه فتهافت آلية المقابلة تتمظهر في المقابلات التي وضعها الجابري في مجال المعقول واللامعقول" فالمعقولية في البيان العربي إنما تتحدد أولا وقبل كل شيء داخل "الكلام" القرآني، وبالضبط في جدلية المعقول واللامعقول في خطابه".[4] يشير طه إلى الإضراب غير الخفي

1- طه، عبد الرحمان، تجديد المنهج، ص.70

2- طه، عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الطبعة 2007.3، ص.42 .

3- المرجع نفسه، ص. 44.

4- محمد عابد، الجابري، تكوين العقل العربي، مركز دراسات الوحدة العربية، ط 2006.12، ص، 136.

الذي يتخلل هذه المفاهيم عند المقابلة بينها، كعدم وضوح العلاقة بين "المعقول الديني" و"المعقول العقلي" فيتساءل طه عن وجه نسبة المعقولية الأولى بالنسبة للمعقولية الثانية، وهل بينهما توافق أم تعارض، وحسب طه فإن هذه الإشكالية تضع الجابري في تناقض صارخ سواء بالسلب أو الإيجاب، انطلاقا من اعتبارات منطقية متعلقة بشروط المقابلة والتمييز والتي تفقد هذه المفاهيم الجابرية "كل فائدة إجرائية".[1] واشتغل الجابري في نظر طه عبد الرحمان بأسباب الرؤية التجزيئية وبمنهج الاحتراء بالمضامين التراثية كما يتجلى ذلك في توسله بآليات عقلانية تجريدية وبآليات إيديولوجية تسييسية أضرت بمبدأ التداخل الذي يقوم عليه التراث معرفة وسلوكا، كما يتوقف طه عند تقسيم الجابري للأنظمة المعرفية في الثقافة العربية الإسلامية (البيان والعرفان والبرهان)، حيث يحاول طه توضيح مدى قدرة الجابري في تحقيق مبدأ التقسيم ومدى" حفظه لشروطه المصححة والمكملة كما تنص عليه نظرية التقسيم المنطقية"[2] إضافة إلى تمحيص المفاهيم التي استند عليها الجابري في وصفه لهذا التقسيم كمفهوم النظام المعرفي، البنية الشعورية، هذه المفاهيم يحكم عليها طه عبد الرحمان بقصورها عن تحصيل الكفاية العلمية في توظيفها، فهذا التقسيم بنظر طه عبد الرحمان ضيق وغير مستوف لشرط الإنشائية أي اكتساب المفهوم المقتبس إجرائية معينة وإنتاجية مخصوصة بفضل ما ينشئه له مقتبسه من معايير وأوصاف محددة وكافية للوصف أو التحليل أو التفسير. وهذا القصور في الإنشائية "يكون سببا في اضطراب المفاهيم وقلق البناء النظري"[3] أما فيما يخص آلية المماثلة التي اعتبرها الجابري المبدأ الذي يقوم عليه العرفان حيث أصد الجابري بخصوص هذه الآلية أمورا بمثابة أحكام نقده لهذا النظام المعرفي، وينطلق طه من هذه الأحكام ليفحص مدى صحتها ونخص بالذكر خلو آلية المماثلة من القرينة. حيث رجع طه لنص بن العربي الذي انطلق منه الجابري ليؤوله باعتباره شهادة من أحد رجالات العرفان ليؤكد خلو المماثلة من القرينة ليلاحظ طه وقوع الجابري في تقويل ابن العربي ما لم يقله وكذا وقوعه في التناقض فيما يخص خلو المماثلة من القرينة، هذا التناقض يتجلى حسب طه عبد الرحمان في استحضار الجابري للمقاصد والأحوال، باعتبارهما ملجأ العرفاني ومصدر معارفه وفي هذا الصدد يقول طه "ليست القرينة في اصطلاح البلاغيين وفي استعمال الناطقين سوى المقاصد والحقائق المشتركة ذاتها"[4] وهنا يتضح تناقض الجابري لأنه ينفي القرينة ويثبتها في آن واحد بالنسبة لطه. كما أن طه يقلب أطروحة الجابري رأسا على عقب حيث يجعل العرفان أو التصوف أساس بنائه للعقلانية المؤيدة، والتي لها قدرة حسب طه على درء آفات العقلانية المجردة وتجاوز حدود العقلانية المسددة. ومن ناحية أخرى إذا كانت أطروحة الجابري التي اقترحها للوصول للحداثة وتدارك التخلف التاريخي الذي نعانيه، تنبني على استدعاء العقلانية النقدية، كشرط أساسي لبداية دينامية ابستمولوجية وثقافية، منتجة للحداثة في المجالات المختلفة، وأي محاولة للتحديث خارج هذه القاعدة فهي مجرد عبث حسب الجابري، هدر للوقت والجهد، فإن طه عبد الرحمان ينطلق في مقاربته للأنموذج الحداثي الإسلامي من خلال التنزيل العلمي لروح الحداثة التي يجب أن تؤسس على التجربة الروحية لتتحقق بالتخلف وكذا أن يكون أساسها المنهج العقلي الرصين لتسهل لنا أسباب الإنتاج الفكري، فالحداثة عند طه هي اتيان ما يضاهي ما عند الغير إنتاجا وإبداعا وليس تقليد ما عنده قولا وفعلا.

1- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، ص45.

2- المرجع نفسه، ص.49.

3- المرجع نفسه، ص.53.

4- طه عبد الرحمان، تجديد المنهج في تقويم التراث، مرجع سابق، ص 58.

وتجدر الإشارة هنا أن الكتاب التأسيسي للاتجاه الفكري لطه عبد الرحمان "العمل الديني وتجديد العقل"[1] تميز بقلبه لأطروحة الجابري رأسا على عقب حيث أن الجابري في تقسيمه الثلاثي للعقل العربي بوأ العقل البرهاني المكانة الأعلى ونزل بالعقل العرفاني إلى الدرجة الأدنى، ووضع العقل البياني بينهما، في حين أن طه عبد الرحمان على العكس من ذلك تماما حيث نجده قد حط من العقل المجرد {العقل البرهاني} وأعلى من شأن العقل المؤيد {العقل العرفاني} في الوقت الذي وضع فيه العقل المسدد أو العقل البياني بلغة الجابري في المنزلة الوسطى "تعبير صاحب العمل الديني وتجديد العقل البياني، بما هو عقل مسدد، أعلى مرتبة من البرهان، بما هو عقل مجرد، فإن العرفان بما هو عقل مؤيد أعلى مرتبة من البرهان والبيان معا؛ وإذا كان الجابري قد احتفى بالعطاء البرهاني الرشدي احتفاء كبيرا، فإن طه عبد الرحمان سيحتفي بالعرفان المغربي احتفاء لا يقل عن احتفاء الجابري برشدياته."[2] وعندما قام الجابري بمواجهة التيارات المتشددة والعنيفة المتواجدة بالساحة العربية المعاصرة بإحياء البرهانية الرشدية، أكد طه بأنه لا يمكن مواجهة هذه النزعات الشاذة إلا بإحياء العرفان السني المغربي الذي يمثل "أصالة العطاء المغربي الذي يسهل إحياؤه واستئنافه ما دامت أسباب الإبداع متوفرة فيه أكثر من الفلسفة الرشدية والموغلة في كل أصناف التقليد والجمود"[3].

خلاصة يمكن القول أن هذين الهرمين المغربيين لم يكونا بمنأى عن المنحى العام الذي اتخذه الفكر الفلسفي العربي، فإصداراتهما تنضح بمعلم وعي وقلق تجاه واقع التأخر، فهما يصدران عن الهم الفكري عينه، ويتشاركان الأسئلة الحضارية المقلقة نفسها، ولكن لكل واحد منهما درب شقه لنفسه في فهم شرطه التاريخي وهذا ما يفسر الاختلاف القائم بينهما على مستوى الموقف من الحداثة والتراث والعقل.

خلاصة:

يبقى الجابري من بين المفكرين العرب ذوي المشاريع النظرية الأكثر إثارة في جدل اللحظة الراهنة، بفعل نقده للعقل العربي، وبحث صيرورته التاريخية، وتحديد المفاهيم المتحكمة في بنيته متوسلا المنهج الإيبستمولوجي ليبرز مدى أهمية عصر تدوين جديد يؤسس لنظام معرفي قادر على مواكبة التطورات المعاصرة، مؤهلا للتعاطي مع تحديات الحاضر، وتظل الأفكار التي طرحها الجابري مبنية في عمقها على الرصد والتحليل والمتابعة. الأمر الذي يفسر استمرار الجدل حول أطروحاته حتى بعد وفاته، بما يعكس قوة أثره وتأثيره في الفكر العربي المعاصر، غير أن هذا المشروع الفكري، على أهميته، لم يخل من انتقادات عميقة وجذرية، خاصة ما قدمه طه عبد الرحمان الذي سعى إلى مساءلة أسسه المعرفية والمنهجية، مقترحا بديلا يقوم على تجاوز العقلانية المجردة نحو عقلانية مؤيدة تستند إلى البعد الأخلاقي والروحي، ومن ثم فإن الاختلاف بينهما لا يعكس تعارضا بقدر ما يمثل تنوعا في سبل التفكير في قضايا النهضة والحداثة.

ومنه؛ فقيمة المشروعين معا تكمن في كونهما يعبران عن وعي نقدي بأزمة العقل العربي ويساهمان في فتح أفق فكري جديد يعيد طرح سؤال التراث والحداثة على أسس أكثر عمقا وجرأة، مما يجعل حضورهما مستمرا في النقاش الفلسفي العربي، وتعبيرا عن حيوية الفكر وقدرته على التجدد والتجديد والإبداع.

1- طه عبد الرحمان، العمل الديني وتجديد العقل .ط4. المركز الثقافي العربي، بيروت،2009.

2- عبد النبي الحري، طه عبد الرحمان ومحمد عابد الجابري صراع المشروعين على أرض الحكمة الرشدية، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، ط1. 2014، ص 180.

3- – طه عبد الرحمان، سؤال الأخلاق : مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة العربية، المركز الثقافي العربي، ط 2000، ص221.